

المثل الشعبي في رواية الورم لمحمد ساري

أ. نسيمة لوح- جامعة البليدة 2

لقد نال التراث توظيفا مميّزا لدى الكتاب، وذلك لما يقدمه من مضامين ، إذ يعدّ المرحلة الأولى التي يأتي بعدها الشكل الفني الذي يتمحور حول المضمون .

أ- مفهوم التراث :

يقصد به الآثار التي خلفتها المجموعة البشرية والطبيعية مرورا بعصور مختلفة ذات أزمنة مديدة . والتراث يمثل لنا المواقع التاريخية والآثار والمتاحف، والأغاني والألحان الموسيقية ، والمعتقدات الشعبية من حكايات وأناشيد ورقص، والقصص التاريخية، والقصص الخرافية والأساطير، والأقوال الماثورة، والأمثال والحكم، والألعاب التقليدية والألغاز، والمخطوطات الموجودة بالمكتبات والزوايا القرآنية . فالتراث بمفهومه الواسع هو « العلامة المميّزة لهويّة كل فرد وكل فئة اجتماعية ، وكل أمة ، وكل دولة ، إنّه يؤسّس هويّة شعب ما باعتباره الموروث الثقافي والديني والفكري والأدبي والفني وكل ما يتّصل بالحضارة أو الثقافة » (1) .

ب- مفهوم الأدب الشعبي :

الأدب الشعبي هو « أدب الأمة الشفوي ، سواء كان مجهول المؤلف أو معروفه ، المعبر عن عواطفها وآمالها ونظرتها في الحياة ، في شكل نصوص موروثة أو حديثة معروفة » (2)، ونجد أنّ أدبنا الشعبي « ليس بدعا من صنوه الأدب العربي الفصيح ، فهو يشبهه ولا سيما القديم منه في كثير من خصائصه التاريخية والحضارية لأنّه :

1. يقوم على الزوايا ، كما كان أدبنا العربي القديم يقوم عليها .
2. يشيع في مجتمع تغلب عليه الأمية في معظم الأحوال .
3. يشيع في مجتمع تغلب عليه البداوة (وشظف العيش) .
4. يجسّد المطامح الساذجة لطبقة شعبية معيّنة، لا لشعب ينتظمه حبل واحد، ومبدأ واحد ، وهدف واحد» . (3)

ج- مفهوم المثل الشعبي :

« أصل المثل التماثل بين الشئَيْن في الكلام كَقَوْلِهِمْ (كَمْ تدين تدين) ، وَهُوَ من قَوْلِكَ هَذَا مثل الشَّيْءِ وَمِثْلُهُ كَمَا تَقُولُ شَبْهَهُ وَشَبْهَهُ ثُمَّ جَعَلَ كُلَّ حِكْمَةٍ سَائِرَةٍ مِثْلُ » (4)

وللناس في تعريفه عبارات : « فليل إته القول السائر المشبه مضربه بمورده ؛ وقيل هو قول مركب مشهور شبه مضربه بمورده ، وهما بمعنى . فقيد السائر والمشهور يخرج ما لم يشتهر ويسر من الأقوال كلها.... وقيل المثل هو الحجة ، وهو صحيح لأنه ينجح به ... وقال المرزوقي: المثل جملة من القول مقتضبة من أصلها أو مرسلها بذاتها ، تتسم بالقبول وتشتهر بالتداول ، فتنتقل عما وردت فيه إلى كل ما يصح قصده بها من غير تغير يلحقها في لفظها ، وعمّا يوجبها الظاهر إلى أشباهه من المعاني . ولذلك تضرب وإن جملت أسبابها التي خرجت عليها ، وقال الراغب : المثل عبارة عن قول في شيء يشبهه قولاً في شيء آخر بينهما مشابهة لبيان أحدهما الآخر ويصوره ، نحو قولهم : " الصيف ضيعت اللبن " فان هذا القول يشبه قولك : " أهملت وقت الإمكان أمرك. " قلت: وتلخيص القول في هذا المقام أن المثل هو قول يرد أولاً لسبب خاص ، ثم يتعداه إلى أشباهه فيستعمل فيها شائعا ذائعا على وجه تشبيهها بالمورد الأول » . (5)

إنّ الحكمة تنتج عن التجربة. ولذلك نجد مجموعة الأمثال عند العرب ، هي حصيلة تجاربهم في الحياة ، التي كانوا يخوضون فيها بكل قوة . أما أسلوب الكتابة للتعبير غير المباشر ، فلم يكن إلا صيغة من الصيغ الأسلوبية المستعملة في التمثيل للابتعاد عن السردية المتصلة عادة بالتقرير المباشر.

وإذا تأملنا الخلال الثلاث التي أشار إليها أبو عبيد القاسم بن سلام في صفة المثل وهي: الإيجاز وإصابة المعنى وحسن التشبيه ، فهي توجز لنا التعريف الرقيق للمثل من الناحية الفنية (6). فالمثل إذا « زبدة الكلام الصادر عن البلغاء والحكماء ، أجمع المتحدثون على صوابه للاستشهاد به في مواقف الجدل ومختلف ضروب الكلام » (7) ، ويعدّ صفوة الأقوال وعصارة الأفكار ، وخلاصة التجربة الحياتية لأجيال سبقتنا ، فهو يؤرّخ لوجدان المجتمع « ويعالج الأخلاق والحكمة والتربية والتوجيه ، والسخرية والتهكم ، والتكثيرة والفكاهة ، والعظة والعبرة ، والحب والكراهة ، والاضطراب والاطمئنان ، والخوف والأمن ، والتعاضد والشقاء ، والخصب والجذب ، والحرب والسلام ، والحياة والموت » (8).

لكن هذه الكنوز من الحكم والأمثال ، مهددة بالانقراض نتيجة لعوامل كثيرة أهتمها انتشار وسائل الإعلام بأنواعها ، والتي حلت محل الرواة لكن في مجالات أخرى غير المثل والحكمة ، وكذلك اضمحلال دور الخيال الشعبي في حفظ التراث وانشغاله بقضايا الحياة المتمدنة . (9)

د - توظيف المثل الشعبي في الرواية :

إنّ النص الأدبي بصفة عامة هو بنية دلالية تنتجها ذات فردية أو جماعية ضمن بنية نصية منتجة ، وفي إطار بنيات ثقافية واجتماعية محدّدة (10) ، و« الرواية بطبيعتها الموسوعية وقدرتها على

احتضان أجناس أدبية متعدّدة وشهرتها العصرية أيضا ، أن تجعلها مؤهلة أكثر من غيرها لتحقيق عملية التوظيف «⁽¹¹⁾ ، مما جعل الأدباء ينهلون من هذا المعين الضافي ، فعادوا إلى التراث بصفة عامة سواء التراث العالمي أو التراث العربي الذي يشهد له بالتنوع والجمال وقدرته على التأثير في الأدب الإنساني ، أو التراث الشعبي الذي تزخر به مختلف مناطق الوطن وما زالت الذاكرة الشعبية تحتفظ به ، فلا تكاد تخلوا رواية أو قصة من توظيف وجه من وجوه هذا التراث ، ويعدّ المثل الشعبي من بين أهم صور التراث المستعملة في الإنتاج الروائي الجزائري ، فاستغلال الروائيين لزبدة تجارب أسلافهم والمثثلة في الحكم والأمثال الشعبية ساهمت في « تطوير الحدث الروائي ، وفي الكشف عن ذهنيات الشخصيات ، وفي إغناء التجربة الحياتية لأفراد الرواية وفي الدلالة على البيئة المحلية »⁽¹²⁾ ، وذلك لما تحمله الأمثال من شحنات دلالية قوية ، فالمثل أقوى تأثيرا في العلاقات الاجتماعية وألصق بحياة الناس ، ومرد ذلك أنه يعالج قضايا اجتماعية مرتبطة بظروف مرحلية معينة ، ويركّز على السلوك الإنساني في ظروف وحالات متغيرة سواء أكان السلوك فرديا أو جماعيا⁽¹³⁾ .

هـ - المثل الشعبي في رواية الورم :

تعدّ رواية الورم من بين الروايات التي أفرزتها العشرية السوداء التي عاشتها الجزائر ، وصدرت عام 2002م ، وقد عالج فيها الروائي " محمد ساري " موضوع العنف الذي تمخّض عن تجربة التعددية في الجزائر ، لذا فعنوان الرواية يحيل مباشرة إلى الورم الخبيث الذي يكتّي به الروائي عمّا أصاب البلاد من مرض يستعصي على الشفاء . و« استطاعت هذه الرواية أن تعبّر عن أزمة سياسية واجتماعية وثقافية متعدّدة الأوجه وشديدة التعقيد بشكل واقعي مثير ومقنع في تفاصيله ، لا أثر فيه للافتعال أو التلفيق ، وأن تعبّر في الوقت نفسه عن كلّ ذلك التعقيد بشكل فني ممتع وجميل »⁽¹⁴⁾ .

وتدور أحداث الرواية في قرية " وادي الزيتون " الزراعية بالقرب من مدينة " بوفاريك " ،

التي يعاني شبابها البطالة والفاقة ، لتأتي عشيرة الدّم والتار وتعيش القرية جميعها ككلّ قرى ومدن الجزائر إذ يلتحق كثير من شبابها بالجماعات المسلّحة ، بعدما كانوا ينتمون إلى حزب " الجبهة الإسلامية للإنقاذ " الفائز في الانتخابات التشريعية سنة 1991 م التي ألغتها السلطة آنذاك ، ومن بين هؤلاء الشباب بطل الرواية " كريم بن محمد " الذي كان معلّما بمدرسة القرية ، وزجّ به في المعتقل بسبب انتمائه السياسي ليخرج منه بطّالا حاقدا على السلطة وقراراتها في حقّهم ، مراقبا من فرقة الدرك الوطني للقرية التي أصبح يسجّل حضوره فيها صباحا ومساء . وبعد مدّة يتّصل به رفيقه في الحزب وقد أصبح أميرا لجماعة إرهابية مسلّحة ، يدعو للانضمام إلى الجماعة ويطلب منه قتل أقرب صديق له ، وهو صحفي بالتلفزيون الوطني ، فيقع البطل في حيرة من أمره بين تنفيذ المهمة أو الموت على يد أمير الجماعة لعصيانه ، أو التقرّب من

مصالح الدرك وإخطارهم بالأمر ، ليقتل في الأخير بعد الضغوطات التي مارستها الجماعة عليه ويقدم صديقه ورفيق دربه للموت بأبشع الصور إذ قام أمير الجماعة وبعض عناصره بتعذيبه ثم ذبحه ، ومن ثم التحق "كريم" بالجماعة المسلحة تحت إمرة "يزيد لحرش" ، وبدأ يقوم بالعمليات الإرهابية من اشتباكات مع قوات الدرك الوطني ، وإحراق لمراكز ومصانع عمومية واغتيالات لكل من له علاقة بالسلطة أو يعمل لديها ، وحتى أهالي هؤلاء لم يسلموا من القتل والذبح والابتزاز . وينمو طموح البطل في أن يصبح بدوره أميراً يقود جماعة مسلحة ، ويبدأ التفكير بجدية في سحب البساط من الأمير "يزيد لحرش" ، لينتهي الجزء الأول من الرواية (15).

وتحلل الرواية في الحقيقة مجموعة من الحثيات ، وتغوص بالبحث في نفسيات الأطراف المتصارعة في قالب شيق .

والملاحظ أنّ الروائي قد اعترف بما أنتجته البيئة الشعبية من أمثال ووظفها لأجل إثراء مواقف وتجارب الشخصيات في الرواية .

ومن الأمثال الواردة في الرواية :

— « الواد إذا حمل ما يفرق بين الحشيشة وجذع الشجرة » (16).

وجاء هذا المثل كناية عن الموت العشوائي في تلك العشرية الحمراء ، الموت الذي طال كل فئات الشعب على اختلاف أعمارهم ومناصبهم ، فبعدما كان الصراع قائماً بين السلطة والجماعات المسلحة التي كانت تستهدف قوات الأمن ورجال السلطة ، انتقلت إلى استهداف رموز العلم والثقافة والأدب من أساتذة وصحفيين وأدباء وفنانين ، ثم صارت تستهدف كل فئات الشعب .

وفي نفس سياق القتل ورد المثل :

- « يا قاتل الروح وين تروح » (17).

وأطلق المثل بعد اشتراك البطل "كريم" في قتل صديقه الصحفي ، وفي إطلاق هذا المثل دلالة كبيرة على مصير قاتل الروح البشرية بغير حق في الإسلام ، وهو وعيد له بسوء المآل والعقاب الذي ينتظره في الدنيا وفي الآخرة .

- « كنت حزينا على الرجل الذي صام دهرًا وأفطر على قدم ضفدعة » (18).

وقد قيل هذا المثل في سياق حديث الروائي عن الرئيس الراحل محمد بوضياف (رحمه الله) ، الذي قبل عرض العودة إلى الحياة السياسية ، ويقال في الغرب الجزائري — " صام شهرًا وأفطر على جراحة

" ، حيث تختلف الأمثال في بعض ألفاظها من منطقة إلى أخرى حسب اللهجة المحلية لكل منطقة من ربوع الوطن .

- « الدَّابُّ رَاكِبٌ مُؤَلَّاهٌ كَوَزٌ وَاعْطِي لِلْأَعْوَرِ ... أَذْهَنُ السَّيْرِ يُسِيرُ » ⁽¹⁹⁾ .

وردت هذه الأمثال للدلالة على تردي الأوضاع في كل المجالات ، الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في البلاد ، فالمثل الأول كناية عن انقلاب الأوضاع عن سيرورتها الطبيعية ، فلا أحد من الناس موجود في المكان الذي يستحقه ، وذلك بإسناد المهام لأناس غير أكفاء ، وغير مؤهلين ، في حين أنّ أصحاب الكفاءات مهمشون ، أو تسند لهم مهام أقل مما يستحقون ، والثاني كناية عن عدم إتقان العمل ، والثالث كناية عن تفشي الرشوة والفساد ، في كل المصالح سواء العامة أو الخاصة . وفي نفس السياق نجد المثلين :

- « الْمَالُ يُشَقُّ الطَّرْفَاتِ فِي الْبَحْرِ » ⁽²⁰⁾ .

- « الرِّشْوَةُ هِيَ خَاتَمُ سُلَيْمَانَ » ⁽²¹⁾ .

- « رِيحَةُ الشَّحْمِ فِي الشَّاقُورِ » ⁽²²⁾ . والمثل كناية عن القرابة البعيدة .

- « مُوْلُ التَّلَاجِ وَيَحْتَاجُ » ⁽²³⁾ .

ورد المثل في الحث والدعوة إلى التعاون الاجتماعي ، « فالعقلية الشعبية تعترف بحتمية الفقر ، أو حتمية الاحتياج الذي قد يصيب حتى المملوك » ⁽²⁴⁾ ، وفي نفس سياق التكافل الاجتماعي نجد الزواوي يوظف المثل : — « اللَّحْمُ إِذَا فَاحَ يُرْفَدُوهُ مُوَالِيهِ » ⁽²⁵⁾ . وقد ورد هذا المثل على لسان أخت بطل الرواية " كريم " ، التي عادت إلى بيت العائلة بعد شجارها مع زوجها وحمايتها .

- « ضَرْبَةُ بِالْفَاشِ خَيْرٌ مِنْ ضَرْبَةٍ بِالْقَادُومِ » ⁽²⁶⁾ .

وقد ورد هذا المثل في سياق الحث على عدم التردد والحزم في اتخاذ القرار مهما كانت النتيجة وقد وردت بعض الأمثال في سياقات تشير إلى حالة الخوف ، والصمت الذي كان يعيشه الجزائريون في تلك الفترة الحالكة ، فالخوف سكن القلوب وعشش في الأذهان وكم الأفواه :

- « مَا تَعْرِفُ وَالْوُ مَا شَفْتُ وَالْوُ مَا سَمِعْتُ وَالْوُ » ⁽²⁷⁾ .

- « مَا شَفْتُ مَا سَمِعْتُ مَا هَدَرْتُ خَاطِبِي مَا يُهْمِنِيهِشُ الْأَمْرُ ، اخْفِظِ الْمِيمَ تَحْفِظُكَ » ⁽²⁸⁾ .

- « حَبِّي رُوحَكَ تَسْلُك » (29) .

وفي سياق يدعو إلى الصّراحة ويدلّ على العفوية ، نجد المثل :

- « الصّراحة راحة والّلي في القلب اجيبو اللّسان ، الّلي ما عجّوش الحال أيّدز معاهم ، الذّراع كالين والموت واحدة » (30) .

وقد جاء هذا المثل في موقف رد أحد مالكي قطع غيار السيارات المستعملة ، على ابتزاز كريم ويزيد لحرش لأجل دفع التقود للجماعات المسلّحة ، ويبرز هذا المثل شجاعة هذا الرجل الذي تحدّى أمير الجماعة " يزيّد لحرش " ، وهو أمر نادر لأنّ كل أصحاب المحلّات الّتي كان يبتزّها هذا الأخير ، كان أصحابها يرضخون ويدفعون المال دون تردّد ثمناً لحياتهم وخوفاً على عائلاتهم ، لكن الرجل تربطه علاقة قديمة بأمر الجماعة " يزيّد لحرش " الّذي وظّفه كمساعد له في بيع قطع الغيار ، لكنّه كان جاهلاً ولا يفقه شيئاً ، حتّى أنّه تجرّأ على معايرته بقوله : - « ... كبرت و أصبحت رجلاً تتفرعن على الرجال الّذين علّموك كيف تحزم سروالك » (31) ، وهي عبارة كذلك عن مثل شعبي يقال لمن يتكبّر على من علّمه وأسدّى له المعروف أو لمن ليست له تجارب وخبرة في الحياة ، فردّه هذا إذا نابع من معرفته المسبقة لماضي أمير الجماعة وشخصيته .

ونلّفني الرّوائي يوطّف المثل :

- « كسّر الحصان لا شفاء له » (32) .

في سياق وصف بطل الترواية لحالته التّفسية بعدما زجّ به في المعتقل في الصحراء بسبب انتماؤه للحزب المنحل ، وفقدانه لوظيفته بعد خروجه منه .

وقد أورد الرّوائي بعض الأمثال العربيّة الّتي وظّفها في إثراء الحدث الرّوائي ، ومن الأمثال المستعملة :

- « أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » (33) .

- « تنفّس كريم الصّعداء » (34) ، وفي المثل الفصيح " وتنفّست القدر الصّعداء " ، الّذي يطلق على الرّاحة بعد العناء أو انجلاء المصائب .

- « الحرب خداع » (35) ،

- « السّن بالسنّ والعين بالعين والبادئ أظلم » (36) .

— « أين المفر العدو أمامك والبحر وراءك » (37) .

وهي العبارة المشهورة التي أطلقها " طارق بن زياد " عند فتحه الأندلس ، والتي أصبحت مثلاً سائراً يطلق كلما كان الإنسان مجبر على المواجهة وحزم القرار .
-« أعذر من أندر » (38) .

ويستعمل هذا المثل في مواقف التحذير والوعيد .

ومن الأمثال الأجنبية نجد استعماله للمثل الفرنسي :

-Toute flatteur vit aux dépens de celui qui l'écoute (39)

ويترجمه الروائي إلى — « كُلُّ مَدَّاحٍ يُعِيشُ عَلَى حَسَابِ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْهِ » (40) .

لقد وجدنا أنَّ الأمثال الشعبية قد احتلت مساحة معتبرة من النص الروائي لـ "محمد ساري" الذي وقَّع في اختيار الأمثال ، التي وظَّفها وبخاصة تلك التي استعملت في وصف ظاهرة العنف وما ترتب عليها من كبت وخوف عند الجزائريين ، والمثل كما رأينا عبارة عن قول مجازي ، في أغلب الأحيان وهو فضاء واسع للبوح بالنسبة للكاتب وفرصة للتأمل والتأويل للقارئ ، فهو عبارة موجزة ، محدَّدة ومركزة دلالياً .

الهوامش :

- (1) جعفر بايوش " الأدب الجزائري الجديد التجربة والمآل " . وهران . مطبعة AGP . دط/دت . ص 64
- (2) محمد عيلان " التراث الشعبي الجزائري : مفاهيم ودراسات " . مجلة التواصل . الجزائر . جامعة عتابة . العدد 4 جوان 1999 . ص 170
- (3) د. عبد المالك مرتاض "الأمثال الشعبية الجزائرية ، دراسة في الأمثال الزراعية والاقتصادية بالغرب الجزائري " . الجزائر . ديوان المطبوعات الجامعية . دط/1982م . ص 138 و 139
- (4) أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت: 395هـ) " جبهة الأمثال " . بيروت . دار الفكر . ج: 1 ص 7
- (5) الحسن بن مسعود بن محمد ، أبو علي ، نور الدين اليوسي (ت: 1102هـ) " زهر الأم في الأمثال والحكم " . تحقيق: د. محمد حجي ، د. محمد الأخضر . الدار البيضاء . المغرب . الشركة الجديدة . دار الثقافة . ط 1/1981م . ج 1 . ص 20 و 21
- (6) المفضل بن محمد بن يعلى بن سالم الضبي (ت: 168هـ) " أمثال العرب " . بيروت . دار مكتبة الهلال . ط 1/1424 هـ . ج 1 ص 7
- (7) راجح خُدوسي " موسوعة الجزائر في الأمثال الشعبية " . البليدة . دار الحضارة للطباعة . دط/1997م . ص 5

(8) د. عبد المالك مرتاض " العامية الجزائرية وعلاقتها بالفصحى " . الجزائر . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . دط/1981م.

ص112

(9) ينظر : رايح خدوسي " موسوعة الجزائر في الأمثال الشعبية " . ص5

(10) ينظر : سعيد يقطين " افتتاح النص الروائي . النص . السياق " . المركز الثقافي العربي . ط1/1989م . ص32

(11) مخلوف عامر " توظيف التراث في الرواية الجزائرية " . وهران . منشورات دار الأديب . ط1/2005م . ص15

(12) أ. علي رحامي و أ. زينب خضراوي " قراءة في ضوء المفاتيح السيميائية لرواية اللآز للطاهر وطار " . مجلة قراءات . جامعة

بسكرة . العدد1/2009م . ص178

(13) ينظر: التلي بن الشيخ " منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري " . الجزائر . المؤسسة الوطنية للكتاب .

دط/1990م . ص157

(14) د.أحمد منور " ملامح أدبية ، دراسات في الرواية الجزائرية " . الجزائر . دار الساحل للنشر والتوزيع . دط/2008م

ص165و166

(15) ذكر لي الزوائي " محمد ساري " في حوار له على هامش فعاليات الملتقى الأول " الرواية الجزائرية الآفاق والتحديات " .

بجامعة البليدة 2 يومي 11و12 ديسمبر 2013م ، أن رواية " الورم " كتبها ما بين سنة 1994م إلى 1996م ، وأنه بصدد

كتابة الجزء الثاني من " الورم " .

(16) محمد ساري " الورم " . الجزائر منشورات الاختلاف . دط/2002م . ص92

(17) المرجع نفسه . ص 224

(18) المرجع نفسه . ص 56

(19) المرجع نفسه . ص 59

(20) المرجع نفسه . ص 124

(21) المرجع نفسه . ص 59

(22) المرجع نفسه . ص 43

(23) المرجع نفسه . ص 48

(24) د.عبد الملك مرتاض " الأمثال الشعبية الجزائرية " . ص30

(25) محمد ساري " الورم " . ص 10

(26) المرجع نفسه . ص 219

(27) المرجع نفسه . ص 76

(28) المرجع نفسه . ص 50 و 51

(29) المرجع نفسه . ص 51

(30) المرجع نفسه . ص 50

(31) المرجع نفسه . ص 205

(32) المرجع نفسه . ص 55

(33) المرجع نفسه . ص 42 و 43

(34) المرجع نفسه . ص 2

(35) المرجع نفسه . ص 268

- (36) المرجع نفسه. ص 286
(37) المرجع نفسه. ص 168
(38) المرجع نفسه. ص 164
(39) المرجع نفسه. ص 221
(40) المرجع نفسه. ص 221